الفصل التاسع

العصر العباسى

وصف المعارك والحروب

أبو تمام – البحترى – المتنبى – أبو فراس – الشريف الرضىّ

قامت الحروب فى عهد بنى أمية ووصفها الشعراء فكانوا إلى الفخر بالنصر أقرب من وصف المعركة نفسها ، وتناولوا إلى ذلك بالهجاء خصومهم . وثارت حروب الخوارج فرسمها الشعراء كذلك وعرضوا للفروسية والبسالة والفتك والتفانى فجعلوا الثورة دينية وجعلوا المثل العليا رائدها . ونهض الشيعة فى وصف نضالهم بالدمع والحزن وكان ذلك دينيا أيضاً . وابن قيس الرقيات وصف قتال الزبيريين وشارك كعب الأشقرى فى الفتوح وحمل قسما من القتال فشهد حروب الأزارقة وصوّرها فأبدع فيها ، ولكن هذا الشعر كله كان شبيهاً بحماسة الجاهلية ممزوجاً بفكرة الدين والعقيدة والدفاع عن المبدأ .

ولما انهزم بنو أمية أمام جيوش الدولة العباسية هزّت الانتصارات الجديدة شعراء العصر فوصفوا النصر والهزيمة وأكثروا من القول فيها ، وأكثر الذين فخروا بذلك هو ابن المعتز فقد أشاد بالحرب ورسمها وتهكم بالعلويين .

وقامت كذلك حروب داخلية فى العراق بين قواد الترك ، وخرج كثير من الأمراء على الحكم فنشبت الحروب بين بغداد وبينهم ، واستعرت ثورات القرامطة والزنج ، وشبّت نيران العداوة بين الشيعة والسنة . ونشأ حول ذلك كلّه

شعر كثير رسم الخيل والسلاح وخراب المدن ؛ حتى إن ديوان ابن نباتة السعدى غصّ بكثير من صور الحروب .

ووقعت بين العرب والروم حروب عرض لها أبو تمام والمتنبى وأبو فراس الحمدانى وكثير من شعراء سيف الدولة ، فوصفوا ما قام عند الثغور أو ما وراء الثغور والتخوم حتى خرشنة أو على مقربة من القسطنطينية . وكان من هذا كله صفحات وافرة فى وصف الحرب ، لو جمعت لكانت مدحمة كبيرة تفوق ما كان للأمم القديمة فى وصف حروبها كاليونان والفرس والهند .

وقد وصف بشار بن برد معركة أثار غبارها وسيوفها حتى خيل إليه أنها نجوم تساقط فى الليل . وأبو تمام على رأس الشعراء الذين وصفوا حروب الروم والعرب ، فاشترك فيها بعاطفته وتشفى من العدو وفرح لنكبته ، ورسم دياره وقد أصبحت طعمة للنيران يتراقص اللهب فى أرجائها ، فيغنى عن نور الشمس فى سمائها ، ووصف الفرسان قتلى وجرحى والنساء سبايا للجيش المظفر :

لم تشرق الشمس منهم يوم ذاك على باكٍ بأهل ولم تغرب على عـزبِ

والبحترى شارك فى ذلك فوصف الدروع فى الحرب ولكنه لم يخرج على أوصاف الجاهليين ؛ ورسم الأسنة والرماح تسيل فى البيداء مسيل السراب أو كأنها خيال كواكب فى الماء ، وأبدع فى تصوير المعركة كما رآها منحوتة فى إيوان كسرى ، فأرانا الفارس يشيح فيهوى برمحه ، أو يليح خصمه بترسه ، وعرض المنايا موائلَ فى الحرب تكشر عن أنيابها لاقتناص الفوارس ، وأنو شروان يسوق الكتائب تحت اللواء .

والمتنبى وصف معارك العرب والروم فرسم العدو يسبح فى نجيع من الدم ، وكأنّ السحائب تمطر عليه الحديد ، والمنازل تضطرم فيها النيران ، والقنا تقرع القنا ، وموج المنايا حول الفرسان متلاطم ، ثم يصوّر القتلى من الروم مخاطباً سيف الدولة فى معركة الأحيدب :

نثرتهمُ فـوق « الأُحَيْدِب » كلّه كما نُثِرتْ فوق العروس الدراهمُ[١]
تدوس بك الخيل الوكورَ على الذرى وقد كثرتْ حول الوكور المطاعم[٢]
تظن فراخ الفتخ أنـك زرتهـا بأمانها وهى العتـاق الصلادم[٣]
إذا زلقت مشيتهـا ببطـونها كما تتمشى فى الصعيد الأراقم[٤]

وقد انتثر القتلى فى كل زاوية كما تنثر الدراهم حول العروس ، وتوزعت جثثهم فى كل مكان فتجمعت النسور حولها تأكل وتنعم ، والخيول تبلغ بالعرب أعلى الذرى كأنها الحيات تزحف ببطونها فوق الصخور . ورسم الدروع تكسو الفارس والخيل ، فقال إنهم يجرون الحديد فكأن جيادهم لا تظهر قوائمها فى المعركة لكثرة الحديد ، ومع ذلك قتلوا وهلكوا . وأبرع صورة فى بطولة القائد حين وقف يستعرض الأعداء جرحى منهزمين ، ووجهه ضاحك باسم بالنصر ، وهو أقرب ما يكون من مواقف الخطر كأنه فى جفن الموت ، والردى نائم غافل عنه . وهذه الصورة تقف للشعر العالمى وتصلح للقواد جميعاً من عرب وغربيين حين ينتصرون كسيف الدولة .

وأبو فراس الحمدانى وصف هذه الحروب ضد الروم ، وصوّر انكسار العدو وهرب الأبطال والملوك والقواد ووقوع نساء الروم سبايا فى أيدى العرب ، وصوّر المعاقل تخر سجداً أمام العرب وشبّه الأسرى والقيود تضجّ فى أيديهم وأرجلهم بغناء الغوانى من غير مزاهر ، ووصف النصر فقال :

وأوطأ حصنىْ « ورتنيس » خيـوله وقبلهمـا لم يقـرع النجم حافر

فجعل حوافر الخيل تقرع النجوم حين بلغت الذرى فى الجبال لتصل

---

(١) الأحيدب : جبل الحدث .
(٢) الوكور : ج وكر الطائر وهو موضع مبيته .
(٣) الفتخ : ج فتخاء من العقبان وهى اللينة الجناح — العتاق : كرام الخيل — الصلادم : الشداد .
(٤) الصعيد : وجه الأرض — الأراقم ج أرقم وهو الحية فيها سواد وبياض .

إلى حصنيّ ورتنيس عند الروم ؛ وهذه صورة أخرى تقف لصورة المتنبي فى زحف العرب إلى الأعالى والذرى بخيولهم . وأما الصور التى رسمها الشاعران لنصر سيف الدولة فى غزواته ضد القبائل فكثيرة لا تحصى .

والشريف الرضى أكثر من وصف الحروب والخيل والدروع السابغة ، وخصّ شعره بالماضى التاريخى كما فعل الصنوبرى وكشاجم ، فرسم حروب العلويين وامتلأت نفسه بالحزن وخاصة فى مقتل الحسين ، وصوّر الغبار والرماح والانتقام والتشفى .

ولعلنا لم نختر للمعارك شعراء كثيرين لأننا رأينا أن هؤلاء آثروا المجالس الناعمة والزهر والروض والماء والغناء والشراب ، وابتعدوا عن غبار المعركة وضجيج السلاح وقانى الدماء ، أو لأن الشعراء عاشوا أكثر الوقت فى معزل عن السياسة والقيادة فى الحرب والسلم .